131366

سلسلة المعتمد بن عباد للتاريخ الأندلسي ومصادره 2

# عامة قرطبة في عصر الخلافة

## دراسة في التاريخ الاجتماعي الاندلسي

أحمد الطاهري

منشورات عكاظ

رقم الايداع القانوني : 1988/619
© 1989 منشورات عكاظ
مطبعة عكاظ 12 زنقة أبو نواس ــ الرباط

# تقديم

يسعدني أن أقدم لجمهور القراء والمهتمين بالمعرفة التاريخية تلميذا نابها من خيرة من جلس مني مجلس الدرس. استهل عمله الأول في حقل الدراسات التاريخية ببحث رائد عن «عامة قرطبة في عصر الخلافة».

وبهذا العمل أثبت الباحث طول باع وسعة اطلاع واقتدار في التعامل مع النصوص قراءة واستكناها وغوصا وراء الحقائق وفق منهج أثبت رجحانه على كافة المناهج في دائرة العلوم الانسانية ألا وهو المنهج «الاجتماعي التاريخاني» ووفقا لرؤية شمولية تحيط بكافة الظواهر التاريخية على أساس عامل الوحدة والتكامل في حركة التاريخ وصيرورته، ألا وهي الرؤية المادية.

ولقد استلزم هذا الوضوح المنهجي إعدادا نظريا طويلا في حقل المناهج والنظريات بما أهله للوصول إلى قناعة تامة بالمنهج المختار والرؤية المحددة.

ولعل لهذا المنهج وتلك الرؤية دور واضح في اختيار موضوع البحث ألا وهو طبقة العوام التي أهملت من لدن المدرسة المثالية في تفسير التاريخ، تلك التي انصب اهتمامها على التأريخ للحكام.

لم يكن هذا الاختيار بالأمر الهين، ذلك أن المادة التاريخية المتراكمة في الحوليات السياسية شحيحة في معلوماتها عن الطبقات الكادحة فلم تحفل باخبارها إلا نادرا . لذلك كان على الباحث التوجه إلى مظان أخرى ككتب الطبقات والجغرافيين والملل والنحل والأدب والفقه والخراج والنوازل وغيرها من المظان التي طالما أغفلها دارسو التاريخ المحدثين.

في دأب وأناة تعقب الباحث موضوعه في سائر المظان المتاحة وجمع من المادة الثرية المتنوعة ما أهله لدراسة الموضوع لأول مرة فيما نعلم.

وبفضل سلامة المنهج أظهر الباحث قدرات فذة في تحليل الروايات ومقارنتها وتحقيق الأحداث والوقائع وعرضها في أسلوب جديد يعمد إلى التوثيق في رصد الحقائق وتعليلها وتفسيرها إن لم يكن تنظيرها.

وانطلاقا من وضوح الرؤية قدم الباحث بناء متكاملا لموضوع البحث إذ تعرض لخطط قرطبة وحدد مضارب ومواطن العامة بها تحديدا دقيقا. كما نجح في تحديد شرائح هذه الطبقة فضلا عن تبيان وضعيتها بين سائر الطبقات الأخرى ؛ مصححا بذلك أخطاء الدارسين الذين يفهمون البناء الطبقي من خلال عمل العصبية العنصرية أو الطائفية المذهبية. لقد اعتمد الباحث في تحديد هذا البناء على مسح اقتصادي شامل لانماط الانتاج السائدة والهامشية. وعرض لقوى الانتاج في ضوء ما توصل إليه دون اعتساف، فتفرد بذلك عن الكثيرين من الباحثين الذين يشاركونه المنهج والرؤية لكنهم يلوون عنق الحقائق لتنسجم مع مقولاتهم المسبقة.

وقد اقتضته الأمانة العلمية أن يبرز ــ مع ذلك ــ تأثيرات العصبية والاديولوجية المذهبية في مجتمع لم تحسم فيه قضية الصراع بشكل نهائي. والجديد أنه قدم تفسيرات مقنعة لتلك الاشكالية في إطار القوانين العامة للمادية التاريخية. الأمر الذي يشكل في نظري إسهاما في إضافة الجديد إلى الجوانب النظرية فيما يتعلق بشكل حركة التطور في مجتمعات ما قبل الرأسمالية.

وقد نجح عن براعة في رصد وضعية العامة في الهرم الاجتماعي ؛ قدرته على تفسير مظاهر الحياة الاجتماعية لهذه الطبقة تفسيرا علميا مقنعا.

وقد أهله هذا النجاح لنجاح جديد حين اعتمد مقولة «الصراع الطبقي» في تفسير التاريخ السياسي والعسكري متجاوزا في ذلك النظريات التقليدية التي ترى أن التاريخ السياسي له قوانينه الخاصة وعوامله الكامنة فيه التي تشكل صيرورته وحركته.

لذلك أصبح من اليسير بعد ذلك كله أن يقدم الباحث صورة مقنعة عن ثقافة العوام باعتبارها انعكاسا طبيعيا لاوضاعهم الاقتصادية ــ الاجتماعية.

إن العمل بشكله الراهن وبتماسكه العضوي الصارم وباتساق ظواهره المتنوعة، دليل لا يرقى إليه الشك على سلامة المنهج وصدق الرؤية. وإن براعة العرض الموثق المحقق دليل آخر على تمكن الباحث من أدوات منهجه واقتداره الفذ الذي أهله لأن يولد مؤرخا من خلال عمله الأول.

إن ما أثاره هذا العمل ــ من خلال لجنة المناقشة ــ قمين بأن يجعله يثير المزيد من القضايا ويحسم الكثير من التساؤلات التي تعترض سبيل الباحثين في حقل التاريخ الاسلامي. وفضلا عن ذلك، فلسوف يثير القرائح ويشحذ الهمم نحو دراسة «الكادحين» من صناع التاريخ الحقيقيين الذين أغفلهم القدامى وتجاهلهم المحدثون.

وحسبي فخرا واعتزازا بهذا العمل وتقديرا لصاحبه أنني بدأت مع طلاب الدراسات العليا مشروعا طموحا يتبنى التأريخ للعوام في كافة حواضر العالم الاسلامي الوسيط. وحسب صاحبه فخرا واعتزازا بقيمة عمله أنه أنيط بشرف الريادة.

أخيرا ــ أرجو أن يتقبل الباحثون والدارسون هذا العمل بما يستحق من تقدير، وأرجو للباحث مواصلة الجهود على ذات السبيل.

**والله ولي التوفيق**

**الدكتور محمود اسماعيل**
أستاذ التاريخ الاسلامي
كلية الآداب ــ جامعة عين شمس القاهرة

# مقدمة

لعب عامة قرطبة دورا بارزا في تاريخ الأندلس خلال عصر الخلافة. وأثروا بعمق في أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية. بل وتحكموا في مصيرها بسيطرتهم على مقاليد السلطة مرارا. بحيث لا نبالغ إذا اعتبرناهم طرفا أساسيا، لا يمكن باغفاله فهم أية قضية من قضايا تاريخ الأندلس فهما متكاملا.

ولا يخفى التأثير البالغ الذي مارسته الخلافة الأموية على مختلف الأصعدة في مجموع الحوض الغربي للبحر المتوسط، وامتداد إشعاعها الحضاري إلى مختلف أرجاء العالم. وبالمثل عكست التطورات العالمية أصداءها على مجريات التاريخ الأندلسي. لذا فالوقوف على دور العامة كفيل بالقاء أضواء جديدة على قضايا التاريخ الوسيط عامة. ولا غرو، فما زال الجدال[1] حول الأسباب الكامنة وراء التراجع عن منجزات عصر الخلافة، ساري المفعول. دون أن يكون بمقدور ما قدم من تعليلات[2] أن تحسم في القضية. إن عجز الحجابة العامرية عن حل أزمة

(1) إن التراجع عما تحقق خلال القرن العاشر الميلادي بمختلف مناطق العالم الاسلامي، أثار ــ ومازال ــ تساؤلات العديد من المفكرين والدارسين من مختلف التخصصات. بل تحولت إلى قضية محورية مطروحة على الفكر العربي منذ عصر نهضته. وقد كثر اللجاج فيما بين الأفراد والتيارات السياسية والفكرية وكثرت التعليلات والتنظيرات، واستمرت القضية هي هي، كل مرة يعاد طرحها من زاوية جديدة، حتى غدا ذلك معلما من معالم أزمة الفكر العربي المعاصر.

(2) سواء ما قدم في اطار المناقشات النظرية التي دارت حول اشكالية الانتقال من الاقطاعية إلى الرأسمالية، وما ساهم به مركز الدراسات والأبحاث الماركسيّة، أوما تتضمنه عديد من كتب التاريخ والاقتصاد من آراء في الموضوع.

الخلافة الأموية، وفتح آفاق جديدة للتطور، أدى إلى قيام ثورة العامة. على أثرها تسلموا السلطة ليطرحوا مشروعا بديلا سرعان ما سقط هو الآخر في خضم الصراعات المريرة التي اصطلح على تسميتها بعصر الفتنة. ومع هذا العصر يبدأ توقيت الانتكاسة. في إبراز تحركات العامة إذا، ما يساهم في الكشف عن جذور التراجع الحضاري بالغرب الاسلامي.

وفضلا عن ذلك، فالدعوات إلى عقلنة وعلمنة التاريخ الاسلامي، لم تجد بعد صداها المطلوب خصوصا بالنسبة للتاريخ الأندلسي، الذي مازال يفتقر إلى الوضوح في كثير من مناحيه، لا سيما فيما يتعلق بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية[3] ومن البديهي أن الكشف عن هذه الجوانب يستلزم دراسة الطبقات المنتجة، باعتبارها تتحمل ثقل النشاط الاقتصادي وتكون الغالبية العظمى في قاعدة الهرم الاجتماعي كما تتعذر هذه الدراسة بمعزل عن هذا النشاط وهذا الهرم. تناول عامة قرطبة من هذا المنطلق، يعني الوقوف على المحور الذي من خلاله تتحدد طبيعة المرحلة التاريخية، والأنماط الانتاجية والعلاقات الاجتماعية خلال عصر الخلافة.

ورغم ما لدور عامة قرطبة من أهمية في فهم تاريخ الأندلس، السياسي والاقتصادي والاجتماعي. لم تخصص لهذا الموضوع — فيما نعلم — أية دراسة مستقلة. بل وحتى كتب التاريخ العام أهملته إهمالا يكاد يكون مطلقا. ما ورد عن العامة في بعضها لا يتعدى بعض الاشارات القليلة الأهمية. نادرة هي الدراسات[4] التي تنبهت إلى أهميتهم، لكن في سياق تناولها لقضايا أخرى. حقيقة أن هناك فيضا من الأبحاث عن الجوانب الاقتصادية المختلفة، من فلاحة وسكة وعمارة وتجارة، والاجتماعية من عادات وتقاليد وطوائف، لكنها لم تول اهتماما يذكر للعامة.

على العكس، يبدو أن القدماء كانوا أكثر انصافا. فأبو بكر الزبيدي ألف كتابا لغويا في «لحن العامة»[5] كما جمع الزجالي عديدا من أمثال عوام الأندلس، وهو

(3) رغم ذلك الفيض من الدراسات التي تناولت هذه الجوانب. يقول الحبيب الجنحاني في مداخلة بندوة ابن حيان بالرباط : «إن نشر نصوص جديدة مثل المقتبس يمكن الدارسين من سد بعض الثغرات، ومحاولة تدارك النقص وخاصة في مجال التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وهو مجال ما تزال العناية به بين الباحثين العرب محدودة وما يزال التاريخ السياسي والعسكري أو الفكري طاغيا».

(4) محمود اسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الاسلامي : دار الثقافة : الطبعة الأولى : البيضاء : 1980.

(5) ابن الابار : التكملة لكتاب الصلة : نشر عزت العطار الحسيني : مطبعة السعادة مصر 1956 : ج 1 : 328.



الذي نشره ابن شريفة. وفي المشرق، ألف الجاحظ كتابا في «أخلاق أهل البطالة»[6] مع ذلك، ففي العبارة التي نقلها المقري[7] عن الحجاري بقوله : «ولشطار الأندلس من النوادر والتنكيتات والتركيبات وأنواع المضحكات ما تملأ الدواوين كثرته ... إلا أن مؤلفي هذا الأفق طمحت هممهم عن التصنيف في هذا الشأن»، ما يكشف عن موقف قدماء أهل القلم من العامة. على أي، فما قيل عن عامة قرطبة في المصادر القديمة التي تناولت عصر الخلافة، يقتصر على عرض بعض تحركاتها السياسية في فترة محدودة لا تتجاوز سنوات الفتنة. ما عدا ذلك، فقد ورد عفوا متناثرا وقليلا في ثناياها.

من الطبيعي في ظل هذا الوضع أن تعتور سبيل من يتصدى لمعالجة هذا الموضوع، عديد من المصاعب. فكتابات السلف في الغالب الأعم تحمل بلا هوادة على العامة، ولا تتورع عن سبهم والتغليظ لهم. إذا كانت نظرة الاحتقار واللامبالاة قد أثرت سلبا على كمية المادة التاريخية، فمن شأن هذا الحقد الطبقي، تقديم العامة في صورة شوهاء زائفة. ومما زاد هذه الصورة رسوخا أن أغلب الدارسين يتعاملون مع أقوال السلف كحقائق مسلمة. إذا كان في هذا ما يفسر الظلام الذي يخيم على أكثر جوانب الموضوع، فطغيان التاريخ الرسمي على كتابات السلف، وسقوط أغلب الدراسات الحديثة في نظرة ضيقة ترى في الأندلس مجرد حقل للصراعات الدينية والطائفية، من شأنه أن يزيد المشكلة تعقيدا. إلى درجة أن أحد الدارسين[8] يئس من إمكانية تناول الجانب الاجتماعي بالبحث التاريخي العادي، كما فضل غيره[9] الصمت عن الابداء برأي فيما يتعلق ببعض الجوانب الاقتصادية.

حري بالمتجرد لدراسة العامة إذا، أن ينتبه إلى المزالق والعثرات التي قد تحول دون بلوغ هدفه. من ثم ضرورة التسلح بالنقد في مواجهة المصادر التي نستقي منها المادة العلمية، والحذر في التعامل مع الدراسات المعاصرة التي تمس بعض جوانب الموضوع.

(6) الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك : دار الفكر : بيروت 1955 : 40.

(7) نفح الطيب : تحقيق إحسان عباس : دار صادر : بيروت 1968 : ج 3 : 156.

(8) Guichard, P, AL-Andalus, Estructura antropologica de una sociedad islamica, Barral, Barcelona 1976, p 9

(9) كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية : ترجمة بدر الدين قاسم : دار الحقيقة : الطبعة الثانية : بيروت 1977 : 146.